



كم هو عجيب ومؤسف ما يتعامل به الكثير من الناس في حواراتهم وخلافاتهم وأحكامهم على الآخرين، من ابعادهم عن العدل والإنصاف، ووقوعهم في الظلم والإجحاف..
فما هو سبب ذلك وما علاجه؟

1- العلم أساس كل فضيلة، ومنبع كل خصلة حميدة، فكلما ازداد الإنسان علمًا نقصت المصائب والمشكلات التي قد يقع فيها، ونقصت المداخل والحيل التي يستطيع الشيطان من خلالها أن يفسد على المؤمن عبادته..
فالذي يقطن من رحمة الله، ينقصه العلم بسعة رحمة الله وفضله وكرمه.. والذى يعجب ويغتر بعمله، ينقصه العلم بضعفه وتقصيره، وينقصه العلم بعظيم حق الله عليه..
والذى يكفر المسلمين ويستحل دماءهم، ينقصه العلم بأحكام الدين.. والذى يضيع وقته فيما لائف فيه أو فيما هو قليل الأهمية، ينقصه العلم بالأولويات..
وهكذا كلما تعلم الإنسان أكثر استطاع أن يعمل ما هو أفضل، وابتعد عن كثير من الأخطاء والمصائب..

فليس هناك ما يعظم نفعه على الفرد والمجتمع مثل العلم، وليس هناك ما يعظم ضرره وفساده مثل الجهل..

فكثير من المشاكل أهم أسبابها الجهل، وحلولها لا تكون إلا بالعلم.

2- إن من يريد أن يتعلم العلم على أصوله الصحيحة ويكون منصفاً متزناً، عليه أن يأخذ العلم عن أهله الموثوقين، وينوع مصادره، ويُكثِّر من الذين يستفيدون منه ويأخذونه..

فكلما ازدادت معرفة الإنسان، اتسع صدره لما يسوغ فيه الخلاف، وزاد احترامه للأطراف الأخرى. ومن قل علمه كثُر اعتراضه فيما لا ينبغي الاعتراض عليه.

فليس كل نقد سببه: العلم، فكم من نقد لم يأت إلا من الجهل وضيق الفهم.. فزيادة العلم مع سلامته القصد يحلقان ب أصحابهما إلى سماء الإنصاف، والجهل واتباع الهوى يهويان ب أصحابهما إلى هوة الإجحاف..

3- والجهل خير من علم مقترب بالهوى والبغى.. قال تعالى: (وَمَا اخْتَلَفَ النِّدِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)،

فبين الله سبب اختلافهم بقوله: (بَغْيًا بَيْنَهُمْ). وهذا العلم حين يقترب بالظلم والبغى يكون وبالاً على صاحبه..

وقال سبحانه: (وَلَقَدْ بَوَأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبِئِّنِي صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)..

4- كم هو مؤسف أن يجد بعض الناس متعتهم في إخراج الكثير من المسلمين من أهل السنة، وتضليلهم وتبديعهم، ويريدون تضييق دائرة الإسلام الكبيرة وحصرها في مذهبهم فقط، فالدين العظيم الذي جعله الله رحمة للعالمين، يجعلونه على الناس نعمة وعذاباً..

وكأنهم يقصرون أبواب الجنة على أنفسهم ولا يريدون لها أن لا تكون لغيرهم!

فهل مصيبة هؤلاء: الجهل؟ أم ضيق العقل والنظر؟ أم اتباع الهوى؟ أم الأنانية وعدم حب الخير للآخرين؟ أم هي مزاج من ذلك كله؟

5- شتان بين من يحاور وهو يريد الوصول إلى الحق، وبين من يريد أن يثبت ويبرهن أن الطرف الآخر على ضلال، فتراه إذا تراجع الآخر عن خطئه لا يزال يقرعه ويؤنبه ويبيّن له أنه الآن قد غيرَ كلامه بعد أن كان منحرفاً وضالاً.. وكان الأخرى به أن يساعدته على قبول الحق باحترامه لأنه تراجع عن خطئه، وليس بأن يحول بينه وبين قبوله للحق بتقريعه وتأنيبه!

6- إذا حاور أحداً ولم يقنع بكلامه، اتهمه بأنه لا يريد الرجوع إلى الحق وسرد له الأدلة على أهمية الرجوع إلى الحق! ومن قال له أنه قد اقتنع بكلامه ولكنه لا يريد الأخذ به! فقد تكون حجته غير مقنعة، وقد يكون عنده من الأدلة ما ينقض به كلامه..

7- يختلف معه في الرأي فيقول له بلهجة حادة: اتق الله! وكأنه لم يختلف معه إلا لنقص في التقوى عنده..

الحث على التقوى مطلوب ومحمود، لكن عندما يأتي بسياق يفهم منه اتهام الآخر، فاتهام الآخر لا يمكن أن يكون محموداً.. 8- المواقف التي تستفز الإنسان لها فوائد كثيرة، فهي تدرب على الصبر، وتشحذ العزيمة، وتثير الذهن، فيأتي بالأفكار والمعاني التي لم تكن تخطر له لولا هذا الموقف..

وكم من أعمال علمية عظيمة الفوائد، كان سببها: التدافع والاختلاف في المواقف والأفكار.. أو وجود أعداء يريدون الإساءة، مما أدى بكثير من الناس إلى رد فعل معاكسة دعّتهم إلى الانتصار للحق.

فمن العقل والحكمة أن يتعامل الإنسان مع من يختلف معه، ولا يقتصر على من يوافقه..

فالذي لا يتعامل إلا مع من يوافقه، سيخسر الكثير من الفوائد، ولن تتاح له الفرصة ليكون أكثر نضجاً وعقلاناً..

9. يذمُونَ شخصاً، لأنَّه تغيَّر ولم يَعُدْ كما كان عليه! وهل التغيير لا يكون إلا إلى الأسوأ؟
أليس هناك تغيير إلى الأحسن! فما معنى أنَّ الحقَّ قديمٌ والرجوع إلى الحقِّ خير من التمادي في الباطل..
ألم يقل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة: (تُلَكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا يَوْمَئِنْدِ، وَهَذِهِ عَلَى مَا قَضَيْنَا الْيَوْمَ) .. وهل يمكن للإنسان عندما يزداد علمًا وفهمًا أن تبقى أفكاره كما كانت قبل أن يزداد علمًا..
أليس للإمام الشافعي: المذهب القديم والمذهب الجديد؟
أليس للإمام أحمد أكثر من رواية في كثير من المسائل؟
ثم بعد كل هذا يأتي من يلمز الآخر وينقصه بحجة أنه تغير!
ولا شك أن الحديث عن التغيير في الظنيات والوسائل، وليس في القطعيات والمحكمات.
ولكن من الخلل الكبير أيضًا أن يحسب أحدهم أن كل مسألة اقتنع بها هي قطعية لا يصح فيها الاختلاف، وأن كل ما نشأ عليه هو الحقُّ وما سواه هو الضلال..

10. الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنباري والإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمهما الله هما من أكبر تلاميذ الإمام أبي حنيفة رحمة الله، ومع هذا لم يتعصب الصاحبان لقول الإمام أبي حنيفة، فكثيراً ما يذكر الفقهاء قول الإمام أبي حنيفة ومخالفة الصاحبيْن له، وقد تكون الفتوى في المذهب على قولهما..
لقد كانوا يعلمون أنَّ الانتصارَ للحقِّ هو انتصارُ للإمامِ نفسهِ، وليس الدفاع عن قول الإمام بحقِّ أو بغير حقِّ هو انتصارُ له..
كم هو الفرق كبير بين هذا الموقف - من الإمام في تقبّله للحوار ومن تلاميذه في نすこと له - وبين موقف بعض الأساتذة الذين لا يقبلون النقاش من تلاميذه، وكذلك بعض التلاميذ الذين لا يتقبلون من أحد أن ينتقد أستاذهم..
11. بعض الذين ليس لهم معرفة ودرية بحقيقة العلم وعمقه واتساعه إذا ذكرت له قول أحد الأئمَّة الأربعَة أو غيرِهم من الأئمَّة والعلماء.. يقول لك غاضبًا مستنكراً: أنا أريد الأخذ بالدليل!
وهل الأئمَّة الأربعَة وغيرِهم من العلماء لا يأخذون بالدليل؟
سواء أكان الدليل نصًا أم قياسًا على نص، أو سواه أكان الدليل نقلًا أم عقليًا..
أو يريدهم الأخذ بفقه السنة، مع أنَّ جميعَ هؤلاء الأئمَّة فقهه هو فقةُ للسنة، فكلُّهم من أصول مذهبهم: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

لكن القرآن والسنة فيهما ما يحتمل أكثر من دلالة، وفيهما العام والخاص، والمطلق والمقييد، وفيهما ما هو ناسخ وما هو منسوخ، وغير ذلك..

فهل يستطيع أي إنسان أن يميز بين دلالات الألفاظ المختلفة، ويفرق بين الناسخ والمنسوخ.. وهل يستطيع أن يجمع بين الأدلة إذا تعارضت في الظاهر.. فكل الأئمَّة يريدون الأخذ بالدليل.
ولكن السؤال: هل ثبت الدليل وصح عند هذا الإمام؟

فإذا ثبت وصح، فكيف فهم هذا الدليل.. وكيف يكون الجمع بينه وبين غيره من الأدلة.
فالخلاف قد يكون سببه: ثبوت الدليل أو عدم ثبوته، وقد يكون سببه: اختلاف الفهم للدليل.

فالذي يريد أن يستغنى عن كلام الأئمَّة ويأخذ بالدليل الذي يراه و يجعل خلاف الناس لفهمه هو خلافاً للدليل، هذا إنما يحدُّر الناسَ من التقليد للأئمَّة الكبار ثم يريد منهم أن يكونوا مقلدين له!

وليس معنى هذا الكلام: استنكار الاجتهاد من العلماء المتخصصين أهل الاجتهاد، وإنما هو استنكار لمن يريد الاجتهاد وهو لا يملك شيئاً من أدواته..

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَاحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المصادر: